تغير الحلم

كانت التجارة حلمي وحلم جل أصدقائي. لم نكن نعرف أحلاما أخرى؛ فأبي قال لي ذات يوم: "الحلم يحتاج إلى إمكانات". لم أفهم قوله حينها. لكن لما كبرت، أدركت أن أحلام أبناء الدوار قاصرة، أو هكذا يجب أن تكون. كان أفضل حلم يحلم به أحدنا هو أن يرى نفسه قد ارتدى حذاءً جلديا، وبذلة أنيقة بربطة عنق، وبجنبه حبيبته التي تمضغ العلكة، وترتدي فستانا مستعملا ومزركشا بالألوان.

نجتمع في المساء، نوقد نارا من أخشاب وأوراق نجمعها هنا وهناك. ننتظر احتراقها لتصير جمرات تتوهج، وقبل أن تصير كذلك، يخنقنا دخان الأوراق، تنتفخ أعيننا الصغيرة، ثم تدمع. في الحقيقة؛ نحب الدموع. نستمتع بها وهي تندفع من عيوننا ثم تتكور كبلورات على خدودنا. لا يمر يوم لا نبكي فيه؛ من ضرب المعلم، أو الآباء، أو ألم الجوع...

لكن، سرعان ما ننسى الألم. نبكي ونذرف الدمع وننسى الألم، لكن لا يفارقنا الأمل. نطفئ النار، ويزول دخانها بعد هبوب الرياح. نستمتع بالحرارة المنبعثة من الجمرات. يشرع إدريس في سرد حلمه؛ يتحدث عن فتاته، الملامح نفسها والصفات ذاتها. لا شيء تغير، ولن يتغير. في الحقيقة، صديقي حفظ الحلم عن ظهر قلب، وصار يعيش معه في الواقع؛ لا يميز بين عالمي الحلم والواقع؛ اختلطت عليه العوالم. فكلما حدثته بسوء عن فتاته، نهرك وربما

ضربك، وفي أحسن الحالات يمسك لسانه، ويصوم عن الكلام ويقول: "لن أكلم اليوم إنسيا".

الفتاة التي يصفها تكونُ زميلتَه في القسم. ابنة المْعلم "أسي محمد" " مول العصا ديال التيو دلبوطا". كان إدريس كسولا وبليدا. لا يتقن الحساب والإعراب. وكان "سي محمد" يتلذذ في حصتي الإعراب والحساب. كان يقول لنا: "أنتم لا تجيدون الإعراب ولا الحساب. أنتم مثل الحيوانات"!.

يندفع إدريس، ويداه ترتجفان كأنما صعقه التيار الكهربائي، قائلا:

- وفي أي شيء سيفيدنا الحساب؟

يصمت المعلم لبرهة، ثم يقول: "أَوَلَسْتَ تريد أن تصير تاجرا؟"

يهتز المسكين، ويهز رأسه بالإيجاب. أقول أنا في صمتي: "على الأقل إن صار تاجرا، فسيبيع لابنتك هاته التي لا تشعر بما نشعر به من ألم، وربما يقول لها بضع كلمات بعد أن يبيع لها العلكة، وتهرب مسرعة تلقاء بيتك أيها المعلم".

كان "أسي محمد" يقول لنا: "الإعراب مهم وضروري في الحياة؛ فبه تفهمون القرآن وتفسرونه. اللغة العربية لغة الجنة، وبها تؤدون شعائر الدين، وتتواصلون مع الله...!".

لكن الله "علم آدم الأسماء كلها". كيف لا يتواصل معنا بلغات أخرى غير العربية! هذا الذي يقوله "أسي محمد" غير معقول!

نطق إدريس البليد: "الإعراب لن يجعلني أتواصل مع ابنتك. ها نحن نتحدث العربية، لكننا معذبون في الدوار. إن كانت العربية لغة أهل الجنة، فعليها أن تعرف أننا أول من يتحدث بها في الأرض، علَّنا نصير من أهل الجنة".

يصمت إدريس لحظة ثم يسأل المعلم: "هل سنبكي، أيضا، في الجنة؟ أنا أريد أن أتعلم الحساب جيدا و أفتح دكانا، وتأتي عندي الجميلات، و أبيع لهن كذا وكذا وكذا.. هذه أمنيتي في الأرض. أما الإعراب، فأماني السماء..".